الشيخ محمد علي التسخيري
فارس المنابر العالمي في سبيل التقارب والوحدة

الشيخ د. جعفر المهاجر*

ترجع معرفتي بشيخنا التسخيري، أمدّ الله تعالى بعمره في خير وعافية، إلى أواسط العقد الثاني من هذا القرن الهجري / أواسط ثمانينات القرن الميلادي الماضي، حيث أتيح لي أن أشارك في عدد من المؤتمرات التي تولى هو الدعوة إليها وتنظيمها وإدارتها، وذلك تأسيساً على تعارف غير وثيق تم في رحاب «النجف الأشرف»، التي جمعتنا في فترة الشباب الأولى. هو بحكم المولد والنشأة، وأنا بحكم الهجرة. وكان تعارفاً من النمط الذي يحصل بين طالبين جمعتهما حوزة «النجف الأشرف» الجليلة، التي كانت آنذاك تتربّع على القمّة التي هبطت عنها بعد ذلك بسرعة. تجمع في رحابها آلاف الطلاب، القادمين من شتّى أنحاء «إيران» و«الهند» و«سورية» و«لبنان» و«العراق»، فضلاً عن جاليات أقلّ عدداً أتت من غيرها. وتنعم بالحضور الباهر لمجموعة غير مسبوقة من كبار أساتذة الفقه وأصوله. نذكر منهم: السيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي، والسيد عبد الهادي شيرازي. فضلاً عن عشرات من الأساتذة من الدرجة الثانية كالشهيد السيد محمد باقر الصدر، والشيخ محمد رضا المظفّر، والسيد محمد تقي الحكيم. ولكن وحشيّة نظام طاغية «العراق» مدّت يدها السوداء إلى هذه الحاضرة العلمية الجليلة فدمّرتها تدميراً. وتفرق الناجون من

* باحث في الفكر الإسلامي - من لبنان.

بطش الطاغية في البلدان. وكان شيخنا التسخيري أحد الذين ألجأتهم تلك الظروف إلى مغادرة «النجف» والأوب إلى الوطن الأصلي إيران.

أثناء مشاركتي في المؤتمرات التي تعقد في الجمهورية الإسلامية، وينظمّها ويُدبرها الشيخ التسخيري، لم أكن بحاجة إلى الكثير من دقة الملاحظة لكي أكتشف أنها تمتاز عن غيرها بأمور عدة منها: التنظيم المُحكم الدقيق؛ بحيث إن المُشارك يلمس أن أدنى التفصيلات المتعلقة بأعمال المؤتمر وبشؤون المشاركين فيه هي تحت رعاية دقيقة، وأنه لا مكان إطلاقاً للصُدفة والارتجال.

بعودته إلى الوطن اندمج شيخنا التسخيري في مشروع الجمهورية الإسلامية. وبرزت كفاءاته الاستثنائية في الحقلين الإداري والفكري. وما عتم أن غدا من رجال الصف الأول المحيط بقيادتها الرشيدة، المتمثلة، بعد التحاق الإمام المؤسس رضوان الله عليه بالرفيق الأعلى، بالإمام الخامنئي أعزه الله. ومن العسير التبسّط في الكلام على أعماله وإنجازاته في مختلف المناصب العالية التي شغلها. فذلك أوسع من أن تحيط به مقالة. وسنكتفي بالوقوف بقدر ما يتسع له المقام على إدارته لأعمال (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية)، الذي يشغل الآن منصب أمينه العام.

من المعلوم أن مسألة التقريب بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم هي من المبادئ الأساسية التي أعلنتها الجمهورية الإسلامية منذ اللحظات الأولى لتأسيسها، وكان الإمام المؤسس قدس سرّه يولي هذه المسألة أعظم الاهتمام. ومن أفكاره النيّرة في هذا النطاق إعلان المدة الواقعة بين ١٢ و١٧ من شهر ربيع الأول من كل عام أسبوعاً للوحدة الإسلامية، ليحتفل به المسلمون أينما كانوا بذكرى المولد النبوي الشريف. وبذلك عكس الاتجاه الخلافي على تاريخ المولد، الذي كان مظهراً من مظاهر الاختلاف بين الشيعة والسنّة، ليكون مظهر وحدة تدور على ذكرى جامعة، وسبباً من أسباب التذكير الدائم بها.

ثم جاء تأسيس (المجمع العالمي للتقريب) بمبادرة من الإمام الخامنئي، ليكون المؤسسة المتخصصة في معالجة الإشكاليات الفكرية والعلميّة المذهبية المتراكمة خلال التاريخ. بحيث غدت إشكاليات مُزمنة، خارج حدود أي نقاش في إطار كل مذهب من المذاهب. ولكنها من منظور تقريبي – توحيدي شروخٌ في الجسد الإسلامي الواحد، يتجدّد التذكير بها في كل يوم. ما يجعلها أشبه بدم جديد يُضخ في حالة الفرقة، ويمنحها المزيد والمزيد من القوة والتمكّن. وهذا وضع يمكن أن يتمادى إلى غير ما نهاية، ولا سبيل إلى علاجه إلا بـ:

– إعادة التواصل بين علماء المذاهب، وكسر الجدران العالية التي ارتفعت بينهم في

الماضي، وجعلت من كل مذهب دائرة مُغلقةً، يدور البحث والتأمل خلالها بنحو منعزل تماماً عن المذاهب الأخرى. الأمر الذي يؤهّب لاتساع رقعة الاختلاف، لينتج أشكالاً جديدة من صنوف التمايز.

– تحريك الحوار على الإشكاليات الفكرية والعلمية، ابتغاء البحث عن منازعها وأسبابها التاريخية، ومن ثمّ تأصيلها بالعودة إلى المصادر الأساسية؛ أي الكتاب المُنزل والسنّة الشريفة. باعتبارهما الأمر الجامع، والسبيل العملي الوحيد لتحقيق النهج القرآني الآمر بالاعتصام بحبل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٠٣).

في كتابه القيّم (حول الوحدة والتقريب) – وهو مجموع من الأبحاث التي قدمها الشيخ التسخيري في مختلف المؤتمرات الدولية – عالج قضيّة الوحدة الإسلامية على نحو غير مسبوق، انصبّت على غرضين هما:

الغرض الأول: تحديد «الوحدة» على مستوى المفهوم. وغني عن البيان أن تحديداً كهذا هو مقدمة وخطوة ضرورية، ينبغي أن تسبق أي حوار يتأسّس على هذه القضية الشائكة ذات الأبعاد الهائلة. وإلا فإن الحوار قد يبدأ من النقطة الغلط، ليصل إلى غير النتائج المرجوة منه.

«الوحدة» هي تلك التي تتقوّم بأساسين:

أ- العقيدة الحية، بوصفها منظومة فكرية شاملة، يتبنّاها جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم. وهذا هو الذي يمنحها صفة «الحياة».

ب- إنها بوصفها هذا وشيجة/ رابطة (وحدة قلوب) تنظم جميع المسلمين، وتجعل منهم جسداً واحداً.

ومن البيّن أن «الوحدة» بهذا المعنى هي وضع مركّب، إذا فقد أحد عنصريه انتفى كله. فالعقيدة بنفسها ليست سبباً تاماً للوحدة، وإلا لما كان الطليعيون الغيارى من علماء المسلمين بحاجة إلى هذه الجهود في سبيل التقريب. وأيضاً، فإن الرابطة العاطفية بذاتها مؤهلة للسقوط عند أدنى امتحان.

ذلك التحديد الذي جمع بين البساطة والعُمق لمفهوم «الوحدة» يتجاوز أطروحات توحيديّة، تتفاوت من حيث ميادين انتشارها، ما نجده لدى أحزاب سياسية (الرابطة القومية بما فيها من تاريخ مُشترك ولغة ومصلحة جامعة، الرابطة الجغرافية، المصالح الطبقيّة)، أو تشكيلات بشريّة (قبليّة، إقليميّة/ جغرافيّة)... إلخ.

الغرض الثاني: بيان منازع وأشكال الوحدة والعمل التوحيدي في نصوص القرآن الكريم والسنّة الشريفة والشعائر الدينيّة، الأمر الذي كان شكّل الحافز لعدد من كبار علماء المسلمين لبذل جهودهم في سبيل التقريب والتوحيد، ممن عرّف بهم ونوّه بجهودهم.

وبعضهم ممن خفيت أعماله في هذا الميدان، ومن الواضح أن هذا الغرض قد استنفد القسم الأكبر من الكتاب. والكتاب، يعدّ وثيقة في الغاية من الأهميّة، من حيث الغنى بالأفكار، الجامعة بين الجدّة والعمق والشمول. وما من ريب أنه ثمرة تجربة صاحبها الطويلة في ميادين الدعوة إلى التقريب والوحدة.

على أنني أسمح لنفسي بأن أقترح على شيخنا، مع علمي بمسؤولياته الكبيرة، وبمشاغله التي لا نهاية لها، أن يُعيد النظر في صياغة الكتاب. ذلك أنه، كما عرفنا، قد نُشر كما وُلد، أي على نحو مقالات منفصلة، يعالج في كلّ منها إشكالية من إشكاليات الوحدة على حدة. الأمر الذي يرى فيه الناقد أنه قد أدّى إلى إيجاز بعض النقاط الهامة منه. ربما بسبب مقتضيات المشاركة في المؤتمرات. كما أنه، من جهة أخرى، أثر على تماسك الكتاب وصلابته وتسلسل أفكاره. وما من ريب أنه إذا أتيح له، في يوم قريب إن شاء الله، أن يصوغ أفكار كتابه بصياغته المنهجية المعهودة منه في مؤلفاته الكثيرة، فإنه سيمنح المكتبة الإسلامية أحد أكثر الكتب أهمية في موضوعه، إن لم يكن أهمها على الإطلاق.

إن «المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية»، الذي يضم في صفوفه اليوم العشرات من علماء المذاهب النابهين من مختلف دول العالم، والذي ولدّ المؤسسة الرائدة «جامعة المذاهب الإسلامية»، لتضم طلاباً من مختلف المذاهب. ما يُعيد إلى الأذهان صورة السلف الصالح وهو يدور في حلقاته العلمية، ويأخذ بعضه عن بعض، ويسمع بعضه من بعض، دونما أدنى حرج. مقاييسه الوحيدة هي الوثاقة والضبط وجودة الرأي والاجتهاد، – هذا المجمع يقدم لنا إنشاء الله تعالى صورة مشرقة لمستقبل الإسلام وأهله حينما يهدمون ما بينهم من جدران ويتحدون في سبيل الخير العام لهم وللبشرية جمعاء.

وحين يكون على رأس هذا المجمع عالم جليل، يتمتع إلى جانب العلم الجم ودقة النظر، بالحيوية المدهشة، وبراعة البيان، والإخلاص، ومتابعة لا تكلّ، فإننا نأخذ على محمل الجدّ إعلانه الذي يبيّن رسالته:

«النهوض بمستوى التعارف والوعي وتعميق التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية. وتعزيز الاحترام المتبادل، وتوطيد أواصر الأخوّة الإسلامية. مع تجنب التمييز بشأن انتماءاتهم المذهبية أو القومية أو الوطنية. بغية تحقيق الأمة الإسلامية الواحدة».